آســـفة!

ما تنفك الأنانية والسذاجة أن تكون جزءا لا يتجزأ من سريرتنا الغرة في بداية أعمارنا .. ننظر لأنفسنا ولمن حولنا نظرة لا نعلم مدى زيفها وقصرها ومحدوديتها .. نتجاوز حدود أعمارنا وخبراتنا ونتخيل في بلاهة غير معقوله بأننا قد نعلم أكثر منهم أو ندرك أكثر منهم فقط لأن أيامنا قد أعطتنا الكثير من أمور الحداثة مالم تعطه لهم .. لا نعلم جهلنا وجحودنا في ذلك الا بعد مرور الكثير من الوقت وربما بعد فوات الأوان.

كنت صغيرة حين خرجت للحياة ووجدتك أمامي .. نموذجاً للبطل المغوار الذي لا يخشى شيئا .. يقتحم الصعاب بقوة وقسوة فيجعلها تهابه.

كان ذلك هو أول عهدي بالقهوة وأنا بالسابعة عشرة من عمري .. ربما كنت أتطلع لشربها كي أقلدك وأكون "كبيرة" مثلك حتى أنني فكرت في التدخين كي أكون مثلك أيضاً لولا قيود واقعي الصارم وحزم أمي .. كنت بالنسبة لي المثل والمثال والقدوة .. "الكبير" الذي لابد أن نراقبه ونفعل مثله ونقتدي بكل ما يفعل .. كانت حكاياك عن مغامراتك بعملك "الخطير" و"الحساس" تُلهب حواسي وتثير مخيلتي فكنت أحب أن أجلس اليك وأستمع لك وأنت ترويها .. كنا كلما تجمعنا بتجمع عائلي أنت به هرعت لرحابك وطلبت منك أن تحكي لي .. ساءني كثيرا بعد فترة من الوقت أن لاحظت ضيق زوجتك - والتي كانت قريبتي بالأصل- من حوارنا ولهفي على سماعك .. ساءني ذلك كثيراً فلم تكن بالنسبة لي سوى مثل وقدوة والرجل الذي ربما أتطلع في المستقبل للبحث عمن يشبهه ليكون فتى الأحلام لكن ليس أنت .. ليس أنت بالتأكيد .. لم أكن أدرك في ذلك الوقت أي مشاعر تكنها لي وأي نظرة قد تنظرها لي .. كل ما كنت أعلمه هو ما أشعر به أنا من مشاعر عادية ليس بها أي خطأ نحوك .. الكبير والقدوة والرجل والبطل المغوار.

كبرت واختلفت اهتماماتي .. وان ظلت حكاياك تتربع بوجدان عقلي فتكون هي الأجمل والأقوى والاكثر اثارة بلا منازع .. ذكرى لمراهقة بعقل طفلة استمتعت كثيرا بحكايا البطل الذي لا يشق له غبار .. لكن عقلي كامرأة انتبه لأمر ما حين كبرت ومرت بي عشرون عاماً على ذكرياتي تلك .. كنت قد وصلت لمثل عمر زوجتك وقتها وشعرت ولأول مرة كيف تشعر المرأة بالغيرة على رجلها .. شعرت بتلك الغصة وتلك الغيرة ولأول مرة أشعر أنني مدينة لزوجتك باعتذار على طيشي وعدم تقديري لمشاعرها . على استيائي الكبير من غيرتها على رجلها.

كنت قد رحلت من مدينتنا لمدينة أخرى ومرت من الأعوام ثمانية لم أر زوجتك فيها بينما مرت بك الأعوام فحملت من الأعباء التي يفرضها عليك عملك الكثير والكثير .. لم تعد البطل المغوار المغامر الذي أنظر له بانبهار .. ولم أعد أنا المراهقة الساذجة التواقة للحكايا.

حللت بمدينتي لأزور أسرتي فقابلت زوجتك بتجمع عائلي بعد عودتها هي الأخرى من ارتحال بعيد فرضته عليها ظروف أسرتكم وعملك .. ولأول مرة أشفق عليها من تحملها كل تلك السنين

لمتاعب عملك وظروفه القاسية الحساسة .. من التعايش مع شخص ليس بالسهل ولا بالعادي .. استقبلتني هادئة كعادتها مستوحشة اياي .. ثماني أعوام هي وقت طويل نتغير بهم الكثير من أمورنا وأحوالنا .. كنت انا قد صرت المرأة "الكبيرة" الناضجة التي خبرت حب الزوج والغيرة عليه وبت أتفهمها ..

- افتقدتك.

- افتقدتك كثيرا حبيبتي .. كيف حالك وحال أطفالك الرائعين.

- الكبير لم يعد طفلاً الآن .. تجاوز الثالثة عشر وصار شاباً مزعجاً يناطحني الرأي.

- ابتسمت في حنان وهتفت "صاحبيه .. لا تشعريه أنك ترينه طفلا ساذج.

- أحاول ذلك بالفعل .. دعينا من أطفالي .. كيف حالك وحال "أونكل" أمجد".

- بخير .. صار منصبه الحساس سيفاً على رقابنا جميعا بعد رقبته .. ترحال وقلق والكثير من التغيير لكننا نتأقلم كالعادة فمنذ متى لم أتأقلم مع ما يفعله بي "أمجد".

- ءءءء أريد أن أسرك سراً
- خيراً حبيبتي.
- هو ليس سراً في الواقع هو اعتراف .. اعتذار على وجه التحديد.
- امتلأت ملامحها بالتعجب والاستفهام وهي تتمتم .. "اعتذار".
- نعم .. اعتذار ..
- تفضلي حبيبتي .. أستمع اليكِ.
- بالحقيقة أريد أن أعتذر لك عن استيائي منك وقت كنت صغيرة .. كنت أشعر بغيرتك من جلساتنا أنا وزوجك ومن حماسته بالحكي وحماستي للإستماع .. لم أكن أحمل بداخلي نحوه ما أراه موجباً لتلك الغيرة الزائدة .. كنت أرى عيناك وانزعاجك وأنكر عليك ذلك وأتجاهله في حماقة لا مبرر لها سوى حداثة سني وقلة خبرتي .. كبرت وصار لي زوجاً أحبه وأغير عليه كثيراً فتذكرتك وعشت ما أنكرته عليكِ وقتها فسامحيني.
- ابتسمت ابتسامة حانية بها الكثير من التسليم وتنهدت قائلة "لا عليك حبيبتي فقد كنت أعلم ذلك رغم غيرتي الكبيرة

عليه وغضبي الشديد منه .. ربما لم ترين فيه سوى القدوة والبطل الذي تحبين كثيرا حكاياه وتنبهرين بعالمه اللامع وأنت لا ترين بخبرتك المحدودة سوى ذلك الجزء .. لم تكونين وقتها بمكاني ولم تشعرين بغيرتي كزوجة تعبت كثيرا من زوجها المغامر بالعمل وبالحب أيضاً .. لم تكوني تدركين وربما لا تدركين للآن كيف كان ينظر لك .. ربما كانت حداثة خبرتك وسنك تمنعك لكنها لم تمنعني أنا من قراءة عيناه .. كنت قد هرمت داخليا من فرط مغامراته وسعيه وراء استجداء شعور الاعجاب من كل انثى يقابلها .. وكأنه يشعر بالاستنكار الشديد ان قابل أنثى ولم تلتفت له ولم تعجب به ولم تنبهر انبهارا شديدا تعبر عنه .. كنت متعبة للغاية وقتها ولم يكن ينقصني فوق كل هذا وذاك تلك الصغيرة الغرة التي لا تعي شيئاً فسامحيني على تصدير احساس الاستياء الخارج عن ارادتي لكِ.

- أنا من يجب أن يعتذر .. حقاً لم أدرك كل ما تقولينه لي ولم أدرك حقيقة مشاعرك الا حين كبرت وصرت بمكانك .. اكتشفت اننا نمر بالكثير ونبخس الكثيرين حقهم في تقدير مشاعرهم فلا نشعر بهم الا اذا حللنا بأماكنهم وكأنا هم .. نتوهم

ونحن صغارا قدرات وهمية لدينا على التعايش مع الأمور .. معرفة وهمية بما حولنا ومن حولنا .. لا ندرك أبدا سذاجتنا وسذاجة أمرنا الا بعد وقت طويل نكون فيه مكان هؤلاء الكبار الذين أزعجناهم كثيرا فاعذريني .. حقاً أنا آسفة.

***